# المال ومعالم التقريب *

في كتابه الضافي " معالم التقريب "، وقف أستاذنا العالم الفقيه المفكر الجليل محمد عبد الله محمد عند المال وأثره على الدعوات بعامة، وفيما يتعلق بمعالم التقريب بين المذاهب بخاصة .. ويبدأ بإيضاح يبادر ببيانه، هو أن " التقريب " لا يعادي المال ولا يواليه . ولكن المال يلفت إليه دعوة التقريب من جهة آثاره على الأرواح، باعتباره قيمة قد تنافس الدين، وباعتباره عنصراً في الواقع، ووسيلة من الوسائل في خدمة الحاجات المادية اللازمة للدعوة الدينية، وباعتباره أداة للتعبير عن العواطف بما فيها عاطفة التدين .

فالمال قوة في المجتمع ليس لها في نظر الناس حدود، وهو قوة مركزة تستخدم في تحقيق آلاف بل ملايين الرغبات والأغراض، لذلك فقد صار الصراع على المال صراعا من أجل القوة في أصفى وأيسر صورها، فهو في مقدمة قائمة القيم فعلا وواقعا في كل الجماعات حتى الماركسية منها، وأدى إلى سيادة " الطابع المادي " الذي هو أكثر ظهورا عند السوقة والمحتاجين وأهل الفقر والكتل بعامة، نتيجة الشعور بالاحتياج والضيق وشدة التطلع إلى التخلص أو الراحة منهما، من أجل هذا تتعاظم غالبا قيمة المال ـ حتى القليل منه ـ في عين الفقير، ولذلك لم تستطع الأديان حتى في عنفوانها أن تحطم مكانة المال في قلوب الكتل الفقيرة .

---

* المال ٢١ ، ٢٢/٧ / ٢٠١٠

بيد أن هذه الكتل الفقيرة ليست هى التى تعطى المجتمعات طابعها عبر التاريخ، وإنما يستمد المجتمع طابعه دائما من الطبقات التى تعلو القاعدة، كما هى الحال فى الأبنية عموما، وهذه الطبقات هى التى يمكنها أن تقف من المال موقفا فيه شىء من الهدوء يسمح بالتأمل، وهى التى يمكن أن تفطن إلى أضرار المال وأخطاره وقدرته الشيطانية على التسرب إلى الروح وإتلاف الضمير . وفى هذه الطبقات ـ التى تعلو القاعدة ـ يمكن أن يتقابل الدين كقيمة مع المال مقابلة فيها صراع، فإذا فاز الدين انخفضت مكانة الغنى بالنسبة للفقير، وتراجع شأن المال، وقل أو اعتدل تهافت الناس على الثراء، وسهل من ثم بذل المال والتقرب به فى الصدقات وأنواع البر سرا وعلانية، ولم يعد الفقر من المال نقصا يغض من قدر الآدمى فى عين نفسه أو فى عيون الناس، ولم تعد ملكية المال تزكى ـ فى ذاتها ـ قدر صاحبها، وخف بهذا جانب مهم من جوانب الصراع على الدنيا، وتسربت روح ذلك وأنداؤه إلى الكتل الفقيرة، فيلطف من حدة ما تعانيه .

وعملية رفع الدين إلى رأس قائمة القيم، هى فى الدرجة الأولى عملية خفض لمكانة المال وسلطانه وأثره على النفوس، على أنه ليس من السهل ـ مادام الناس على ما هم عليه ـ أن يبقى الدين مدة طويلة على رأس جدول القيم فعلا وواقعا . ويبدو أن تصدر الدين قائمة القيم فى نفوس الناس لا يجىء إلا كرد فعل فى أعقاب النكبات والانتكاسات، أو فى أعقاب نوبات التكالب والسعار على الدنيا التى تجتاح المجتمعات عندما يبلغ فيها الشغف بالمادة ومتاع الدنيا حد الاقتتال، ففى أعقاب هذه وتلك تكون الظروف مهيأة للدين لأداء دوره الطيب والملطف لما يصيب المجتمعات من الأوصار !

ويجب أن يلتفت أهل التقريب وغيرهم من أهل الدعوات - فى تأثير المال - إلى دور الخامة البشرية، أى مجموعة الاستعدادات والقدرات والخصال التى لدى الإنسان، وهى قدرات تختلف باختلاف المكان والزمان والظروف، وترك ويترك آثاره الحتمية فى تاريخ الأديان وكيفية نموها، وعلى آثار صراعها مع المال والقوى المادية، وهو يحدد مع غيره من العوامل مستقبل أى دعوة دينية قديمة أو جديدة .

وهبوط الخامة البشرية شىء حدث ويحدث فى كثير من الجماعات، ويترجم عن وجوده فى صورة خلل مزمن فى عمل الأنظمة، وفى ذهول وإعراض الناس عن الاهتمام بالنجاح للأنظمة أو الغيرة على الخير العام . ولا سبيل إلى علاج هذا الهبوط حين يستشرى فى الخامة البشرية، إلا بمحاولة تغيير النفوس ودفعها إلى العودة الضرورية اللازمة لنجاح المجتمعات والأفراد .

ويبدو أنه فى هذا الصراع بين الدين والمال على نفوس الناس وأرواحهم، لم يدرس المسلمون الكسل وأثره دراسة كافية، ولم ينتبهوا إلى دوره الخطير فى تاريخهم، ولا إلى الصلة الوثيقة بينه وبين المغالاة والتطرف والجمود !!

* * *

والكسل فيما يبدو أمر نفسى وعقلى، وهو خوف وإعراض عن تصور موقف جديد يدفعنا إلى الهرب من تغيير ما هو موجود، فهو - أى الكسل - ليس مجرد كراهة وإعراض عن بذل المجهود فى ذاته .. ذلك أن الآدمى لا يكف حتى فى نومه عن بذل المجهود بصورة أو بأخرى، وحياته العضوية والنفسية سلسلة متصلة من الجهود التى لا تتوقف إلا إذا توقفت الحياة ذاتها . فالكسل فيه أمر زائد على

مجرد رفض المجهود، هذا الأمر الزائد هو رفض الجديد المقصود به إحداث تغيير فى تصوراتنا أو مواقفنا، ونحن حين نتخذ موقفا جديدا ندخل فيما يشبه المعامرة، وهى قد تكون منهكة تدعونا إلى الكف والعودة لالتزام ما ألفناه، والتوقف عن بذل الجهود النفسية والعقلية التى يقتضيها التغيير

نرى شيئا من ذلك لو تأملنا حال " الموجة المادية " التى بدأت تظهر بين المسلمين مع الفتوح فى أواخر عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فهذه الموحة المادية التى علت وامتدت بعد ذلك، كانت فى جوهرها موجة كسل عام بالمعنى المتقدم، تسربت إلى نفوس كثيرة لم تر الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم تشهد المشاهد معه لتغيير حياتهم التعيير الشامل الجاد الذى يتطلبه تطبيق الإسلام تطبيقا صحيحا كاملا . فلما أطل الرخاء وزاد، صاقوا بجسامة التغيير الواسع العميق المطلوب الذى يدعو إليه الإسلام، وتهيبوا تطبيق الإسلام الكامل ( المجهد )، وغلب على أمرهم الاسترخاء النفسى والعقلى والروحى، واكتفوا بتطبيق الإسلام تطبيقا فيه مصالحة ومواءمة تتوقف عند حدود وأجزاء معينة، وتأبى التغيير الكلى الذى هو هدف الإسلام الأساسى، ولا يزال هدفه إلى قيام الساعة .

مثل هذا حدث ويحدث فى كل حركة دينية أو اجتماعية تتغيّا إحداث مثل هذا التغيير الكلى فى حياة الناس، لأنها تصطدم بعد وقت قصير أو طويل - بمقاومة الكسل البشرى .. هذا الكسل الذى يفسر قصر عمر العصور المثالية فى تاريخ الإنسانية !

ومن الملاحظ أن حائط الكسل يزداد كثافة كلما ازداد نفوذ الكتل والعامة، ونفوذها فى العصر الحالى جسيم، وهولا يرجع إلى الفكر والنظر الفكرى، لأن الفكر مهما تساهل لا يسلم للعوام فى

قيادة البشرية إلاّ بدور ثانوى . ويبدو أن مكانة الكتل فى زماننا إنما ترجع أساسا إلى دورهم فى الصناعة والتجارة الحديثتين، فهما تحتاجان على النطاق الواسع ـ إلى الكتل والعامة، كعمال أو عملاء على حد سواء . فالصناعة والتجارة هما القوتان الخفيتان اللتان تسوقان الكتل إلى مساواة الخاصة فى الرغبات والشهوات والمطالب والحقوق . ولذلك فليس عجيبا ما نشاهده من شدة الروح المادية لدى الكتل، وظهور الأنانية والغرور، وضعف الشعور بالواجب، وقلة ضبط النفس والاتزان !

ولكن، هل يمكن أن تصبح الأشياء المادية أعلى وأثمن من الآدميين فى مجتمع متحضر ؟ أجل، وللأسف ـ يحدث ذلك حينما نغفل أمر الآخرين ونسقطهم من تفكيرنا، وحين نبعدهم عن دائرة اهتمامنا، وحين لا نرى إلا أنفسنا وأغراضنا وما نخططه وندبره لتنفيذها أو تحقيقها .. فعندئذ يصبح الآدميون فى نظرنا مجرد عوامل مساعدة نستخدمها فى تحقيق أغراضنا !

لا بد أن يحدث هذا حينما نتصور أن الإنسان سيد مصيره بلا حدود ولا سقوف، وحين نسقط من رؤيتنا وحساباتنا ـ أنه توجد جهة عليا سامية لا بد أن تخضع لها مشيئتنا، ولا نرى أن هذه الجهة العليا تفرض قداسة وقيمة لكل آدمى كآدمى

لا شك أننا جميعا نريد خيراً كثيراً لذوينا وإخواننا، ولكننا نتردد ونحجم عن دفع ثمن هذا الخير الكثير الذى نريده ، لأننا لا نحب شيئا قدر حبنا لأنفسنا وأموالنا ومصالحنا، ولأننا رغم الأقوال والابتهالات لسنا واثقين تماما من وجهتنا، ويخلو معظمنا من استرابة قليلة أو كثيرة فى وعد الحق . يستوى مسار الإنسان، ويتحقق التقريب، حين يسأل كل منا نفسه : هل يثق فعلا فيما عند الله تبارك وتعالى ـ ثقته فى البنك الذى فيه ودائعه، أو الخزينة التى

يكنز فيها أمواله، أو فى شركة التأمين التى أمَّن لديها على حياته وماله، أو ثقته فى وعد الحاكم ورضاه ؟!

يبدو أن العقود والعهود التى نعقدها أمام الله عز وجل معظمها كلام وأحلام، لأننا نفر فى الواقع من تحمل المشاق والصعاب والتضحيات التى يقتضيها الصدق مع الله، والوفاء للإنسانية، واحترام الإنسان من حيث هو إنسان، مع أن ما نترك هذا من أجله ما هو إلا الوهم والباطل وقبض الريح !

❁ ❁ ❁